الزماح
Pygargue

١ً تمهيد — يعيرنا الغربيون بان السلف كان كثير الخرافات مولعاً بها يوردها في جميع المباحث . ومن جملة ما يأخذونه علينا مسألة الزُمّاج ، فانهم يقولون ان ما اورده العرب في هذا الموضوع لا يحتمل الوقوع .

قلنا : اننا كثيراً ما نظرنا الى مثل هذه المفتريات فلم نر لها إساً سوى ان الشعوبية يختلقونها علينا وعلى اجدادنا ، ولو نظرنا اليها نظر المنصف لم نجد فيها اثراً من الخرافة . ودونك ما جاء في امثال الميداني بحرفه :

« أشأم من الزماح » (١ : ٣١٢ من طبعة بولاق الاولى)

« هذا مثل من أمثال اهل المدينة . والزماح طائر عظيم ، زعموا انه كان يقع على دور بني خطمة من الاوس ، ثم في بني معاوية كل عام ايام التمر والثمر ، فيصيب طعماً من مرابدهم ، ولا يتعرض احد له . فاذا استوفى حاجته طار ، ولم يعد الى العام المقبل . وقيل : انه كان يقع على آطام يثرب ، و يقول : خرب خرب [1] فجاء كعادته عاماً فرماه رجل منهم بسهم فقتله ، ثم قسم لحمه في الجيران ، فما امتنع احد من اخذه الاّ رفاعة بن مرار ، فانه قبض يده و يد اهله عنه ، فلم يحل الحول على احد ممن أصاب من ذلك اللحم حتى مات . واما بنو معاوية فهلكوا جميعاً حتى لم يبق منهم ديار . قال قيس بن الخطيم الاوسي :

أعلى العهد اصبحت ام عمرو ليت شعري ام عاقها الزماح

انتهى بحرفه .

وقد نقل كلام هذا المثل بنصه صاحب « فرائد اللآل في مجمع الامثال » في (١ : ٣٢٣ و٣٢٤) ولم يشر الى كتاب الميداني . واورد ابن مكرم البيت المذكور في مادة (ز م ح) باختلاف زهيد اذ قال : « ام غالها » في مكان « ام عاقها » ورواية

(١) الذي ورد في الاوقيانوس لعاصم افندي : حرب حرب . وهي رواية تخالف جميع روايات المصنفين من السلف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللسان أحسن وأشبه . ثم قال : [قال] الازهري : الزماح : طائر كانت الاعراب تقول انه يأخذ الصبي من مهده . وزمّح الرجل : اذا قتل الزماح ، وهو هذا الطائر الذي يأخذ الصبي اه . وتاج العروس أورد نص اللسان ولم يشر الى مأخذه . ولم يغير منه حرفاً .

وحياة الحيوان الكبرى ذكرت الزماج بجيم في الآخر وهو غلط ظاهر من فعل النساخ لايحتاج الى تنبيه اولعله من أغلاط الطبع لانه كان عندي نسخة خطية من هذا التصنيف وفيه الزماح بحاء مهملة في الآخر . وجميع كتب اللغة لم تزد شيئاً على ماورد في كتاب الامثال للميداني . واما كتب اللغة الصغيرة من قديمة وحديثة فانها لم تتعرض لذكره .

حقيقة الزُمّاح

يؤخذ مما استشهدناه من الكلام هذه الامور :

١ً — الزُمّاح طائر من الجوارح قد يتعرض لاخذ الاطفال من مهدهم .

٢ً — لا يكون طول السنة بل في وقت التمر او الثمر .

٣ً — من قتله واكل من لحمه مات .

٤ً — ان بعض الاعراب كان يتعرض لقتله ، ولولا اعتياد بعضهم لهذا الامر لما ذكروا فعلاً لذلك اذ قالوا : زمح الرجل اذا قتل الزماح .

٥ً — ان اصحاب بعض المعاجم الواسعة الافرنجية العربية او بالعكس لم تذكر اسم هذا الطائر لاعتبارهم اياه من الخرافات . فمدّ القاموس للانكليزي « لين lane » أغفله وكذلك فعل كل من نقل او اخذ عنه .

ونحن نجيب عن جميع هذه المطالب :

١ً — يؤخذ من كلام علمائنا الاقدمين ان الطائر الجارح المذكور هو ما يسميه الفرنسيون (Pygargue) و بالانكليزية (Sea-eagle) وبلسان العلم (haliaetus) وهو مفتول العضل شديد الفتك مأسور الخلق ، يأخذ الاطفال من مهدهم ولا يبالي . وهذه شهادة علماء الغرب ننقلها عن معجم لاروس الوسط المصور قال في مادة (Pygargue) ما هذا معناه :

« الزماح جنس من الجوارح من طائفة البوّوز وتشمل عدة انواع مبثوثة على البسيطة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وللزماح اسم آخر هو عقاب البحر وهو عقاب كبير عركي (صياد سمك) ريشه أطحل اوأسود ، ابيض الزمكى والمنق ، وأحياناً ابيض الهامة ايضاً . وله منسر أعقف قوي ومخالب عظيمة عقفاء . يجاور الأنهار والبحيرات ويتخذ وكنه في الصخور المنيعة التي لا ترام ، ويهجم على حيوانات الماء والبر ، ويتعرض للبهم بل و يأخذ الاطفال . والنوع الفرنسي الوحيد المنتشر في آسية الى غرنلند هو الزماح المبياض (Haliaëtus Albicilla) وهو الذي يسميه العوام (كاسر[1] العظام) (Orfraie) و يبلغ طوله متراً وطول جناحيه اذا انتشرا مترين و ٥٠ سنتيمتراً . وهو أطحل اللون وأصدأ ورأسه ارمد والذنب أفقع وكلما طعن في السن يكمد . وهناك ضروب أخرى من هذا الجارح اكبر من هذا ، منها ما هي سوداء ومنها ما هي ظحلاء ، الا ان رأسها أبيض وهي خاصة بافريقية الحارة ، ودون هذه الألوان قوة وقدرة الزماح الأبيض البطن (Haliaëtus leucogaster) و يرى في ديار الهند الى اوقيانية . وهناك نوع متحجر هو الزماح العركي (Haliaëtus Piscator) عاش في فرنسا في الحقبة المتوسطة الحداثة » انتهى .

فيستنتج من هذا ان زماح يثرب (او المدينة) كان من الجنس الافريقي العظيم القوي ، وهو يذهب الى جزيرة العرب في الخريف الذي هو وقت الثمر والتمر لكنه لا يأكل شيأ منها انما يقف على تلك الاشجار مترصداً فريسة له ومعلوم ان الجوارح كلها لا تذوق الاثمار على أنواعها . وانما العوام من اهل المدينة توهموا هذا الوهم لرؤيتهم اياه يقف على الاشجار الضخمة ، لا انهم رأوه يأكل من اثمارها . وبذلك انحلت العقدتان الاوليان من الاعتراضات الخمسة .

اما ان الذي قتله أطعم من لحمه غيره فمات . فلا يستبعد . لان الاقدمين كانوا يقتلون الحيوانات بالسهام وأغلب الاحيان تكون سامّة لضجاج فيها . ولو فرضنا ان ليس هناك سمّ فان جرح الطائر قد يؤدي الى النتن والعفونة فيتأذى من ذلك اللحم كل

(١) راجع معنى كاسر العظام في حياة الحيوان الكبرى للدميري (٢ : ٢٣٣) من طبعة مصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من يأكل منه . ولو فرضنا فرضاً ثالثاً ان الذي يأكل من لحم الطائر المذكور لا يأكل منه الا واللحم غريض فان لحم الجوارح على كل حال يكون صعب الهضم و يسبب في الديار الحارّة امراضاً مهلكة فيكون نصيب من يأكل من لحم ذلك الطائر الهلاك لا محالة .

ان هذا الطائر يرى الى اليوم يتردّد الى ربوع جزيرة العرب وثغورها وقد رأيت بنفسي اربعة منها في تشرين الاول من سنة ١٨٩٤ حين عودتي من اوربة الى بغداد . وقد ذكر لي ربان الباخرة ان تلك الجوارح الضخمة هي الزماميج وهي لا ترى الا في ذلك الوقت . وهذا ما يُستقرى من استعمال السلف فعلاً يدل على انهم كانوا قد اعتادوا قتل أمثالها .

بقي علينا ان نذكر سبب اهمال بعض المعاجم لهذه اللفظة . السبب واضح من ان بعضهم اعتبر هذا الجارح الكاسر من خرافات العرب وقد رأيت انه ليس كذلك . وهذا (البستان) للامام البستاني يذكر الزماح ويقول عنه : « طائر يزعمون انه يأخذ الصبي من مهده وانه يميت لحمه الآكل منه » انتهى . ولو قال : « طائر قد يأخذ الصبي من مهده وقد يميت الآكل من لحمه . ثم يزيد على ذلك : وهو من الجوارح الكبار من طائفة البوّوز » لاكتفينا به وجارينا علماء العصر في مصطلحاتهم وتعاريفهم .

ولهذا العقاب اسماء كثيرة منها ما يأتي مرتبة على حروف المعجم باعتبار الحرف الزائد كالاصل : الأبغث ، الاغثر ، البُلَّت ، البُلَّح ، السَّتَل ، العَوْف ، الفيثة ، الفَيْنة ، كاسر العظام ، المقعّمة ، المكلّفة ، الهُما ، الهُماء ، الهُماي ، الهُمايُون .

ومن الغريب ان من تكلم عن كل اسم من هذه الاسماء لم يعرف انها لطائر واحد ، كما انه لم يعرف مختلف هذه الاسماء ، وان الاوصاف التي ذكروها كأنها متباينة ما هي الا واحدة في الجوهر .

الاب انستاس ماري الكرملي
صاحب مجلة لغة العرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net